

مراجعات في الفكر الماركسي



مهند عبد الحميد

مقدمة

ارتبطت الماركسية بالرأسمالية لجهة الكشف عن تناقضاتها في مراحلها المتعاقبة وتقديم البدائل. بمعنى كان هناك علاقة بين التحولات البنوية في النظام الرأسمالي وبين تطور الفكر الماركسي وبروز تياراته الجديدة. وإذا كان التناسب بين الرأسمالية والماركسية في الحقبة الأولى والثانية من تطور الرأسمالية (القومية والإمبريالية) كان منسجماً أو متلائماً فيما بينهما. فإن التلاؤم بينهما في الحقبة النووية أو السيبرنيتيكا (السيطرة على أي نظام يستخدم التكنولوجيا) صار أقل تلاؤماً، حيث أصبح يظهر في التنظير الماركسي لفضاءات الرأسمالية الجديدة فجوات أو هكذا يبدو. إن تراجع النظام الرأسمالي العولمي عن التأميم، وحماية الصناعات الوطنية، وتدخّل الحكومات للمساعدة في زيادة النمو والحد من البطالة، وعن بناء شبكات أمان اجتماعية، وتوفير التأمين صحي ونزع الشرعية عن دولة الرعاية نفسها، وخصخصة كل شيء، والتراجع عن اتفاقيات حماية البيئة وغير ذلك. هذا التراجع الذي فرضته علاقات السوق وأدواته ممثلة بالبنك الدولي وصندوق النقد الدولي، ألحق خسائر فادحة بقطاعات اجتماعية واسعة في البلدان الرأسمالية نفسها، فضلاً عن خسائر

أثناء الأزمة المالية العالمية التي بدأت عام 2007، والتي نجمت عن سياسات الليبرالية الاقتصادية، أتخمت الصحافة الرأسمالية بإحالات إلى كارل ماركس ونظريته عن التطور والأزمة. حدث ذلك بعد خمسة عشر عاماً من انهيار الاتحاد السوفييتي الذي افترض بأن تجربته هي تطبيق للماركسية. لقد استخدمت فلسفة ماركس السياسية التأسيسية كمفتاح لفهم انهيار أو «مأزق» الليبرالية الاقتصادية والمعتقد الليبرالي السياسي الذي كان يُنظر بشأن «نهاية» التاريخ. ما هو واضح للعيان بطلان ادعاءات العولمة النيوليبرالية القائلة بأن الرأسمالية العالمية هي إحدى صيغ النظام العقلاني الذي سيدوم إلى الأبد» [1].. وفي الأزمة العربية والأزمة الفلسطينية المستفحلة الآن هل يجوز البحث عن اليسار الفلسطيني واليسار العربي وطرق أبوابهما باعتبارهما جزءاً افتراضياً من عناصر الحل؟ اليسار محط البحث ليس الياقطة والشعارات والعجز والقوى المأزومة، بل اليسار الناقد للتجربة والمجدد والمبادر، والمواكب للتطورات والتحولات في بلدانه وعلى صعيد كوني.

تنظيمات اليسار، وكانت مقولتا ماركس وأنجلز المتداولتين: «لم يفعل الفلاسفة شيئاً سوى تفسير العالم بطرائق شتى، لكن الأهم هو تغييره» ومقولة «لا يمكن لأمة تستعبد أمة أخرى أن تكون حرة»، وقعا وتأثيرا تحفيزيا كبيرا أدنى للتغيير والتحرر. فإذا كان هدف تغيير الواقع مطروحا على أجندة القوى اليسارية فإن الفكر يبقى مطروحا للتصويب والتطوير والنقد باعتباره من أهم أدوات التغيير. وعندما تشرع النخب اليسارية بالقراءة النقدية لتاريخ اليسار، فستكون معنية بالتوقف عند قراءات نقدية سابقة وراهنة وفي مختلف مراكز إنتاج الفكر. لا يمكن تجاهل عملية النقد التاريخية ولا ما ترتب عليها من تصويب واستجابات. ومن الطبيعي تحديد مواطن الاتفاق والاختلاف بين القوى اليسارية مع المراجعات النقدية، وما هو إسهامها واستجاباتها للخروج من الأزمة. إن عرض أبرز ما توصل إليه النقاد والمفكرون يستهدف معرفة الفعالية الفكرية للتنظيمات، ومستوى استعدادها للانخراط في عملية الخروج من الأزمة الفكرية التي لا تنفصل عن دورها في الخروج من المأزق الوطني والاجتماعي.

بدأ ماركس «بنقد الرأسمالية وتحليل أشكالها المتطورة المتحولة باستمرار وبالبحث عن سبل تجاوزها، وبقي النقد مهمة راهنة وهي أساس استمرار الماركسية ما بعد ماركس الذي ترك عمله النظري مفتوحاً»

أكبر في البلدان الفقيرة التي فرض عليها تراجعاً أشد، ما أدنى إلى تراجع الأمل في التغيير للأفضل وحل محله الرعب من الخسران [2]. في هذه الشروط يتباين الفكر الماركسي في تشخيصه ورؤيته لتناقضات الرأسمالية ما بين استمرار اعتماد تشخيص المراحل الأولى لتناقضات الرأسمالية، وبين محاولة التلاؤم مع تحولات الرأسمالية الجديدة. وينعكس مستوى الاستجابات على دور اليسار وفعاليته وتأثيره، فيما إذا كان جزءاً من مقاومة التوحش الرأسمالي ومن عملية التغيير، أو جزءاً من الأزمة الطاحنة التي تعيشها الشعوب.

حدد كريم مروة في كتابه (نحو نهضة جديدة للييسار في العالم العربي) «شرطان ضروريان لكي يستعيد اليسار دوره وحضوره في حركة التاريخ. الشرط الأول: أن يبادر اليسار إلى قراءة نقدية موضوعية لتاريخ اليسار القديم منذ ثورة أكتوبر 1917 وحتى نهاية التجربة الاشتراكية. الشرط الثاني: أن يقرأ اليساريون بدقة سمات العالم المعاصر بكل مكوناته لكي يحددوا بموضوعية أفكارهم ويحددوا بدقة المهمات التي يواجهونها، وأن يبذلوا الجهد استناداً إلى العلوم الإنسانية كلها» [3].

ماركس ترك عمله النظري مفتوحاً

اقتربت الفلسفة الماركسية بالعمل على تغيير الواقع وتحقيق العدالة بحسب أدبيات سائر

من قبل لينين، إلى أن نشر بعد انهيار الاتحاد السوفييتي في العام 1990. تقول روزا: «التجربة التاريخية هي وحدها معلمة الطبقة العاملة، وطريق التحرر ليس معبداً فقط بالآلام التي لا تحتمل، بل وأيضاً بأخطاء لا تحصن، ويتوقف تحرر البروليتاريا على تعلمها من أخطائها» [5] وتضيف في مكان آخر: «إن النقد الذاتي الذي لا هوادة فيه ليس مجرد حق فحسب، بل هو أيضاً الواجب الأعظم للطبقة العاملة» [6]. وهنا يمكن تناول أبرز الموضوعات التي تعرضت لها روزا بالنقد الصريح، وجرى تجاهلها:

1. تكتيك دفاع الاشتراكيين اللاديمقراطيين عن الوطن في الحرب العالمية الأولى، تقول روزا كانت الحرب العالمية الأولى أول اختبار عملي لمبادئنا الأممية. وقد وقع الاشتراكيون في تكتيك خاطئ يوضحه بيانهم الذي جاء فيه: «لن نخذل وطننا في ساعة الخطر» وهذا يعني أنهم وقفوا إلى جانب برجوازياتهم التي رفعت شعار «النصر أو الهزيمة». لكن روزا ترى أن أي حسم عسكري للحرب كان يعني أكبر هزيمة للبروليتاريا، ودعت إلى وقوف البروليتاريا ضد معسكري الحرب الإمبرياليين، وإعلان الحرب على الحرب، والتغلب عليها وفرض السلام بأقصى سرعة. ووصفت الحرب بأنها مذبحة جماعية، العمال جنود الاشتراكية يسقطون بمئات الآلاف ويقتلون بعضهم بعضاً. حرب تهدد الحركة العمالية

كما يقول فالح عبد الجبار، ويضيف: النظرية لم تكتمل، والظواهر التي درسها ماركس في تحول مستمر، ومنهج دراسة الظواهر في تعمق مستمر نتيجة الانجازات الكبيرة في علوم المنهج، وانفتاح حقل البحث دون قيود، وبفضل ما أنتجته «تيارات العصر الفكرية الكبرى، كالبنوية، وعلم النفس، والتفكيرية، ومدرسة فرانكفورت، ومدرسة تشومسكي السنديكالية» [4]. فضلا عن غرامشي وميشيل فوكو وجاك دريدا وغيرهم. السؤال، هل واكب اليسار تيارات العصر الفكرية؟ وما قبلها من تيارات نقدية دخلت في سجالات مهمة ومنها بليخانوف وكاوتسكي وبرنشتاين وروزا لوكسمبورغ؟ الذين كان لهم مواقف في المسألة الديمقراطية، والمقومات المادية الضرورية للاشتراكية، والمسألة القومية، لكنهم تعرضوا إلى هجوم شديد، وإلى تجاهل بتهمة التأثير بالفكر البرجوازي.

”الحرية هي دوما حرية أصحاب الفكر المختلف» روزا لوكسمبورغ

من المفيد التوقف عند النقد الذي قدمته روزا لوكسمبورغ تحت عنوان «الثورة الروسية» والذي كان قد طويت صفحته منذ أن كتبتة في عام 1918، أثناء وجودها في السجن ونشر لأول مرة في صيغته غير النهائية عام 1922 أو جرى تقديم بعضاً منه في سياق نقده

التي تحمل في رحمها مستقبل البشرية،
والوحيدة القادرة على إنقاذها [7].

2. استيلاء الفلاحين على الأرض في ثورة أكتوبر 1917: الشعار الذي أطلقه البلاشفة «هيا اذهبوا وخذوا الأرض» تقول روزا: «إن استيلاء الفلاحين المباشر على الأرض وتقسيماها لا يمت بأية صلة إلى الاقتصاد الاشتراكي، وهو إجراء غير اشتراكي، بل يقطع الطريق على الاشتراكية. لقد حدث انتقال فجائي وفوضوي للأراضي من الملكيات الكبيرة إلى الملكية الفلاحية، ما تحقق لم يكن ملكية جماعية، بل ملكية خاصة جديدة جاءت عبر تفتيت الملكيات الكبيرة إلى ملكيات متوسطة وصغيرة، وعبر تحويل مشاريع كبيرة متقدمة إلى مشاريع صغيرة بدائية» وتضيف: «عبر هذا الإجراء وطريقة تنفيذه الفوضوية والمتعسفة لم تجر إزالة فوارق الملكية في الريف بل ازدادت حدتها، ولم يؤد في المحصلة إلى القضاء على الظلم الاجتماعي والاقتصادي في أوساط الفلاحين بل على العكس أدى إلى استفحاله وإلى ازدياد حدة التناقضات الطبقيّة»، وتضيف: «إن الفلاحين الأغنياء والمرابين إصبوا المنتفعين الأساسيين من الثورة الزراعية، وهؤلاء يقفون في وجه كل شكل من أشكال التأمين الاشتراكي للملكية الزراعية». وتخلص روزا إلى القول: «خلق إصلاح لينين الزراعي طبقة شعبية

جديدة وقوية معادية للاشتراكية» [8].

3. شعار حق الأمم في تقرير مصيرها بما في ذلك انفصالها، أدى إلى تفتيت روسيا كدولة، تقول روزا: «يندهش المرء من العناد والاصرار المتصلب الذي يتمسك به لينين ورفاقه بهذا الشعار. فقد استغلت تلك الأمم الواحدة تلو الأخرى هذه الحرية وتحالفت مع الإمبريالية الألمانية كعدو لحدود للثورة الاشتراكية، ومن نماذج ذلك أوكرانيا وفنلندا وبولندا ولتوانيا ودول البلطيق. ليست الأمم بل الطبقات البرجوازية الكبيرة والصغيرة هي التي حولت حق تقرير المصير إلى أداة لسياستها الطبقيّة المناهضة للثورة. هكذا منح البلاشفة عبر حق تقرير المصير البرجوازية في كل البلدان الحدودية أكثر الحجج المنشودة لأهداف الثورة المضادة» [9].

4. «إلغاء الديمقراطية» هو العلاج الذي وجده لينين وتروتسكي لتفادي الأضرار بحسب روزا، فقانون الانتخابات الذي أعدته الحكومة السوفيتية استخلص من نقد لينين وتروتسكي للمؤسسات أنهما يرفضان مبدئياً التمثيل الشعبي عبر الانتخابات العامة ويريدان فقط الاعتماد على مجالس السوفييت. القانون يحدد حق طبقات عريضة ومنتامية من البرجوازية الصغيرة والبروليتاريا التي لا تتيح لها المنظومة الاقتصادية أي

الذي تنفصل فيه عن البيئة الثورية. لا يبدو أن المركزية المفرطة التي يؤيدها لينين تحمل في جوهرها روحاً إيجابية خلاقة، بهذا تختم روزا نقدها. [11]

ما بعد ماركس

يتوصل فالح عبد الجبار استناداً للأفكار التطويرية إلى نتائج من نوع: أن المدرسة السوفيتية عممت تحليل ماركس عن الرأسمالية قسراً ليشمل التاريخ كله، والتشكيلات الاجتماعية الاقتصادية الخمسة بأنماط انتقال جديدة، ويشمل كل الظواهر، مشبهاً ذلك بالنظم الدينية، وكان ذلك مخالفاً لرؤية ماركس. ويضيف عبد الجبار «إن التقسيم الثلاثي المبسط، للماركسية، على أنها "مادية تاريخية" و"مادية دياكتيكية" و"اشتراكية علمية"، تقسيم مبسط، وإن تحويله إلى مذهب، أو منظومة، كان أحد منابع تقويض الماركسية، وثلم حدها النقدي». [12] يذكر أن التنظيمات اليسارية الفلسطينية تبنت المدرسة السوفيتية ومنظومتها الفكرية والتي بقيت محطاً للمراجعة والنقد، وكان مستوى إعادة النظر في عناصر تلك المنظومة يراوح ما بين مراجعة ونقد محدودين وغير كافيين لتجاوز الأزمة، كما فعلت الجبهة الديمقراطية في نقدها لمقولة العوالم الثلاثة الصينية، ومقولة التطور للأرأسمالي السوفيتية. [13] والملاحظ

موارد لممارسة العمل، ويجردها القانون من حقوقها ويضعها سياسياً خارج إطار المجتمع، في حين يعجز اقتصادياً عن توفير مكان لها داخل هذا الإطار. القانون يلغي الضمانات الديمقراطية لحياة عامة سليمة وكذلك النشاط السياسي للجماهير العاملة، هناك حقوق (كحرية الصحافة وحق التجمع وتكوين الاتحادات) جرد منها كل معارضي الجمهورية السوفيتية. تقول روزا: «الحرية لأنصار الحكومة فقط، لأعضاء حزب واحد، مع أن الحرية هي دائماً حرية المختلفين فكراً». ما حدث هو «قمع الحياة السياسية، فدون انتخابات عامة وحرية الصحافة والتجمع وصراع الآراء الحر ستحتضر الحياة السياسية لصالح ديكتاتورية حفنة من السياسيين وديكتاتورية الحزب، ليست ديكتاتورية البروليتاريا. وبدون ديمقراطية لا يمكن تحقيق التحول الاشتراكي. [10]

5. التشديد على المركزية، كان كتاب لينين «خطوة إلى الأمام خطوتان إلى الوراء» توجهها مفرطاً في المركزية، فاللجنة المركزية مخولة بتنظيم كل اللجان الفرعية وتقرر أيضاً بشأن الأفراد. وتخلص روزا للقول: إن الاشتراكية لا يمكن تأسيسها على الطاعة العمياء، ولا على تبعية مناظلي الحزب وكل منظمات الحزب في كل نشاطاتها حتى أدق التفاصيل بعماء لسلطة مركزية تضطلع وحدها بالتفكير واتخاذ القرارات في الوقت

اشتراكية متخلفة لبلد رأسمالي متخلف» لقد اشتكى لينين من بيروقراطية دولة الحزب التي سرعان ما أصبحت ديكتاتورية على البروليتاريا بدلا من أن تكون ديكتاتورية البروليتاريا. [15] وقد استنتج رونالدو منك بأن «ليس هناك إلا مقدار طفيف من التشابه بين ماركس الذي يعاد اكتشافه والماركسية الخشبية التي كانت لها السطوة عالميا، فقد نشطت تيارات يسارية، أجيال ما بعد 1968 وما بعد 1989 استمدت الإلهام من فلسفات ما بعد بنوية وما بعد حديثة، وصدرت موسوعة فعلية من الماركسية المعاصرة التي تقر بأزمة الماركسية مع بداية القرن». ويضيف: «أصبح الخطاب الماركسي أكثر انفتاحا، أقل جبرية، أكثر سياسية». [16]

وكان رونالدو منك قد استهل كتابه (ماركس 2020 بعد الأزمة) بالقول: «ثمة طريقة أخرى لطرح إعادة إعمار الماركسية بحيث تتلاءم مع مقاصد اليوم وذلك عبر دمجها على نحو أكبر مع طروحات النسوية، والأيكولوجيا، وما بعد الكولونيالية، إذ كانت الماركسية الكلاسيكية ضعيفة بالمجمل في هذه الجبهات الثلاث» [17]. استنتاجات أخرى توصل لها رونالدو منك:

- انعطافة ثقافية نيو ماركسية من مظاهرها تراجع المركزية الأوروبية والتطلع نحو زاوية نظر تنطلق من الجنوب، وتبلور نزعة عالمثالية، وقومية ثورية، وتيار ما بعد كولونيالية، وبزوغ لاهوت التحرير في

أن مراجعة الجبهة الديمقراطية، لم تفعل في الخطاب السياسي والإعلامي وفي أوساط التنظيم والنخب. وهذا يطرح سؤالاً عن أسباب مواصلة بقاء المدرسة الفكرية المحافظة وسط تنظيمات اليسار وما هو دفاعها في مواجهة النقد؟

ويتفق «رونالدو منك» مع استنتاج عبد الجبار، فيتهم إنجلز بتبسيط فكر ماركس في نصوصه العقائدية مثل كتاب «ضد دوهرينغ» و«كتاب دياكتيك الطبيعة» وفي ابتداعه المادية التاريخية، بالقول: يجدر التذكير بأن ماركس لم يُجل يوما إلى المادية التاريخية وبالتأكيد لم يُجل قطعا إلى الوحش السوفييتي «المادية الديالكتيكية» وبالطبع كان كراس ستالين «المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية» الذي صدر عام 1938 هو ما رسّخ الأثرثوذكسية الماركسية وأسهم في تحويلها إلى أيديولوجيا دولة ومنهج بوليسي، ويضيف: «وإن كانت المادية الديالكتيكية جزءا لا يتجزأ من التوتاليتارية الستالينية... في الوقت الذي كان فيه فكر ماركس بذاته ابتكارية دائمة وتكيف وتأمل ونقد ذاتي» [14]. ويضيف رونالدو: «أما لينين مبتكر الحزب الطليعي. المؤمن المتزمت بالانضباط الاقتصادي والسياسي استنادا للأساس الموضوعي في ضوء الأوضاع المؤلمة للتخلف الاقتصادي الاجتماعي والسياسي في روسيا بداية القرن العشرين، فقد أصبحت اللينينية ماركسية التخلف، أو

أمريكا اللاتينية.

- صعود حركات اجتماعية جديدة وثيق الصلة بتراجع الدور المركزي للطبقة العاملة التي شهدت تحولات عميقة.
- انحياز الماركسية الذكوري في النظرية والممارسة كان عائقاً أمامها كمرشدة للتحول الاجتماعي للبشرية بأسرها.

إسهامات النظرية النقدية

مشروع مدرسة فرانكفورت النظري فتح أمام الماركسية أبعاداً متعددة، حين نقد مفكروها الوضعية وتأثرت بكانط ولوكاش وفرويد واستندت للعلوم الإنسانية والطبيعية، والتفاعل بين الفلسفة والعلوم الاجتماعية التجريبية وحاولت تجديد الماركسية، انطلاقاً من روح الفلسفة الماركسية وفلسفات العصر كالفلسفة الفينومينولوجيا «الظاهرات» والفلسفة الوجودية. اهتمت هذه المدرسة بالتنشيط والاعتراب والعقلانية الأدائية والتقنية. وفي المجمل كانت هذه المدرسة النقدية وليدة أزمات العصر ونتاج للصراعات والمتناقضات على اختلاف درجاتها، لكنها عجزت عن تقديم نسق نقدي محكم، وعن تقديم بديل في الوقت الذي ثارت عليه، كما يقول نقادها، في الوقت الذي نجحت في ربط الفلسفة بالثورة من

خلال إبراز الدور الثوري للفلسفة. وبالمقارنة مع النخبة المثقفة في عالمنا العربي نجد انحسار الاهتمام بالفلسفة وبدورها النقدي، فقد لوحظ تراجع وغياب الفلسفة في التعليم المدرسي والأكاديمي ولدى النخب التي تكثفي بالنقل والتقليد في أحسن الأحوال على حساب النقد. [18]

أما المفكر السوداني هشام عمر النور فقد أدلى بدلوه في المراجعة من خلال تبني المدرسة النقدية (فرانكفورت) التي عملت بمبدأ «الفحص النقدي للمستجدات التاريخية وفتح الطريق للتغيير، ولتجاوز نظام السيطرة والقمع في الرأسمالية والاشتراكية، وفتحت المادية التاريخية على التعدد حيث يتحدد تاريخ النوع الإنساني بأسس بيولوجية وسيكولوجية واقتصادية بدلا من أن يتحدد بالأسس الاقتصادية وحدها. وهذا يعني أن الصراع الطبقي لم يعد وحده المحرك للتاريخ وإنما المجتمع كله هو المحرك».

وحاول تمييز آرائه استنادا لتجربته في الواقع السوداني. حين دعا إلى التمسك بالماركسية مع انفتاحها على أفكار جديدة والعمل على تخليصها من دوغمائيتها. يقول: "إن مشروع التحرر الإنساني يستند في كل فترة تاريخية على تعميم نظري لقمم نشاطه المعرفي، ثم سرعان ما يصبح هذا التعميم النظري قاصرا عن القيام بدوره كهادٍ أو مرشد نظري لمشروع

كلية وشمولية وحتمية ووضعية كما هو حال الماركسية. لقد أصبحت العلاقات في المجتمعات الحديثة علاقات معقدة ومركبة، تحاول فيها قوى السيطرة تغليب منطق السلطة والسوق بينما تحاول قوى التحرر الإنساني تغليب منطق عالم الحياة، منطق العقلانية التوافقية، ومنطق الحرية والمساواة والعدالة والديمقراطية وحقوق الإنسان» [20]. ويرى النور أن تنظيمات اليسار مارست القمع بحق المختلفين، ويعتبر أن صعود الإخوان المسلمين هي النهاية القصوى لبؤس حياتنا الفكرية.

الماركسيات الألف

د. ماهر الشريف يذهب بعيدا في مراجعاته المفتوحة على نقد وإسهامات مفكرين عالميين في رحلة الكشف عما شاخ وتقادم وعما بقي را هنا من الماركسية كما يقول. لقد ربط الشريف بين الماركسية وبين إخفاق تجارب البناء الاشتراكي، وبين التطور الذي طرأ على الرأسمالية نفسها، وتحدث بجرأة عن نزع القدسية عن كل ما تراكم من ثغرات في الحقل الذي أفتتحه ماركس، مسلطا الأضواء على ثغرات من الوزن الثقيل [21]:

- الثغرة الأولى، نزع ماركس للاقتصادية: جعل ماركس من العامل الاقتصادي مفتاحا

التحرر الإنساني بسبب اعتلاء الفكر الإنساني لقمم جديدة في نشاطه المعرفي، ويفترض أساسا نظريا جديدا يتجاوز الأساس السابق». [19] ويتبنى النور النظرية النقدية التي كان هدفها الرئيسي فتح المادية التاريخية على التعدد انطلاقا من الوقائع السياسية التي سادت بعد الحرب العالمية الثانية، التي كانت تشير إلى انغلاق المادية التاريخية ووقوعها في فخ أحادية المجتمعات الرأسمالية وتحولها من نظرية للتحرر إلى نظرية السيطرة.. ويضيف: "إن نظرية المعرفة الماركسية هي التي جعلت الماركسية أحادية البعد، الحقيقة فيها واحدة هي الحقيقة الموضوعية المنطبقة مع الواقع، وبسبب ذلك صارت الماركسية محافظة أكثر من كونها نظرية للتغيير». مقابل ذلك ارتبطت نظرية المعرفة في النظرية النقدية بالمصالح الإنسانية كالمصلحة في السيطرة على الطبيعة، والمصلحة في تزايد الترابط والتفاعل الاجتماعي بين الذوات الإنسانية، والمصلحة في التحرر وهو الذي يعتمد على التفكير النقدي، وعلى التعددية العقلانية، (العقلانية الأداة والعقلانية التوافقية والعقلانية النقدية) وتعددية منهجية، كمنهج التحليل التجريبي، ومنهج التأويل والفهم، ومنهج التأمل الذاتي، والجمع بين الهوية واللاهوية.

الصراع الطبقي بحسب النظرية النقدية لم يعد وحده المحرك للتاريخ وإنما المجتمع هو المحرك، ولم تعد النظرية النقدية

حرا إلا حينما يكون تعبيراً عن إرادة مشتركة حرة. والرأسمالية لا تتمثل في مراكمة البضائع فقط بل تتمثل كذلك في الإدارات الحديثة والطرق وأنظمة التعليم والإعلام وإنتاج المعارف. كما أن اختفاء الملكية الخاصة لم يفض إلى زوال الطبقات والدولة الطبقية بل أفضى إلى تشكل دولة طبقية من نوع آخر.

-الثغرة الرابعة، أخذ على ماركس موقفه من الديمقراطية السياسية، فالديمقراطية بمفهومه لا يمكن أن تكون هدفاً بذاتها، بل يمكن التضحية بها على مذبح متطلبات النضال البروليتاري، وتبنيه لمفهوم ديكتاتورية البروليتاريا وبخاصة بعد ثورات 1848 في أوروبا.

يصل الشريف إلى نتيجة مفادها أن تداعي الأرتوذكسية الماركسية والماركسية، مهد لولادة عشرات المساهمات في الحقل الذي افتتحه ماركس قبل قرن ونصف، حيث يجري الحديث عن الماركسيات الألف المنعزلة عن الممارسات للأحزاب الشيوعية التقليدية، والتي تطمح في بناء علاقة جديدة بين النظرية والممارسة، وإلى إحياء الفكر في إطار ما يسمى نيوماركسية أو ما بعد الماركسية. المساهمات تطرح مسألة الاتفاق على حد أدنى نظرياً؛ وتوفير إمكانية نظرية لتحليل الرأسمالية المعولمة وأشكالها، وتوليد حركات وممارسات اجتماعية جديدة لتجاوز أشكال الاستغلال والإستلاب للرأسمالية الجديدة.

لفهم تشكل المجتمعات، وقبل بصورة ضمنية، بأن مصير الرأسمالية مقرر سلفاً، وتعامل ميكانيكياً بين الأزمة الاقتصادية وبين الثورة. لم يحل ماركس الواقع المعقد والمتناقض للطبقة العاملة، كما قدس العمل المأجور وتجاهل أهمية العمل المنزلي، واستهان بخطورة النتائج الأيكولوجية الناجمة عن تطور الرأسمالية، ولم يتعمق في دراسة العلاقات بين الجنسين، وتجاهل قوة المشاعر القومية بين العمال.

- الثغرة الثانية، العلاقة بين البنية التحتية والبنى الفوقية، إن المعارف تدحض فكرة أن علاقات القرابة وأشكال السلطة والتمثيلات الدينية تتوافق في كل مرة مع شكل مادي للإنتاج محدد تاريخياً وجغرافياً. مثلاً بعض المجتمعات القبلية، والأديان لا تتوافق مع الفكرة، والفكر لا يختزل إلى مجرد كونه انعكاساً للواقع المادي. فيوجد إلى جانب العنف الذي تمارسه الطبقات منبع آخر لسيطرتها، يتمثل في قبول الخاضعين للسيطرة ورضاهم عنها، وتشارك المسيطرين والخاضعين للسيطرة في تبني التمثيلات نفسها.

- الثغرة الثالثة، المماهة التي أقامها ماركس بين الرأسمالية وبين السوق، ذلك أن غنى المجتمع الرأسمالي لا ينبع من شكله البضاعي وحسب، وإنما ينبع من شكله المنظم، والتعاقد الحر بين الأفراد في ظل الرأسمالية لا يكون

موقع اليسار الفلسطيني من المراجعة

ثمة علاقة بين مشروع التحرر الوطني والاجتماعي وبين النشاط المعرفي والفكري، والحوار والسجال والنقد الذي يساهم في حل التناقضات وإيجاد الحلول للمشكلات، وما يعنيه ذلك من تطور الفكر السياسي. كان اهتمام الثورة الفلسطينية بالثقافة والمعرفة ضعيفا بسبب غلبة السياسة الوطنية الخالصة على إعادة البناء المستندة إلى المعرفة الاجتماعية. يقول يزيد صايغ: «لم يصدر من المستوى القيادي نتاجا نوعيا واحدا حول الاقتصاد والمجتمع والاستراتيجية والتحول في المجتمع الفلسطيني، ولم تبادر القيادة بحملات تصحيح للتوجهات الداخلية في المراحل المختلفة، ويعود ذلك إلى النقص العام في المعرفة بالثقافة والفكر السياسي.» [22] يشهد على ذلك ضعف المنتج الفكري لتنظيمات الحركة الوطنية وبخاصة اليسارية، فضلا عن انطفاء السجال اليساري/ اليساري، واليساري/ الليبرالي والقومي الذي بدأ مع صعود الثورة الفلسطينية، وطال موضوعات حساسة من نوع المسألة اليهودية، والمسألة القومية، واستراتيجيات التحرر الوطني. كما لوحظ في حال وجود إنتاج فكري من قبل النخبة المثقفة من داخل وخارج التنظيمات اليسارية، (نموذج حسين مروة ومهدي عامل في لبنان، وسمير أمين وخليل كلفت وإبراهيم

فتحي في مصر، وهشام النور في السودان، وهادي العلوي وفالح عبد الجبار في العراق) فإن ذلك الإنتاج لا ينعكس على السياسات والحماية والتعبئة الداخلية.

الوضع الفلسطيني أكثر شدا في الفكر السياسي والمراجعة الفكرية باستثناء مساهمات إدوارد سعيد وهشام شرابي. ومن مظاهر ذلك أن الواقع الفلسطيني شهد تغلغلا للفكر الديني المحافظ في المنظمات والقواعد، وأحيانا طال كوادر وقيادات في التنظيمات اليسارية، وما ترتب على ذلك من تكريس انفصال التحرر الاجتماعي عن التحرر الوطني وانطفاء التنوير، وصولا إلى انفصال البرامج السياسية عن قواعد التنظيمات السياسية على اختلاف ألوان الطيف السياسي، حيث ينتمي الجميع للثقافة المحافظة التي نشرها الإسلام السياسي في المجتمع دون اعتراض اليسار والعلمانيين والمنتورين، ليشكل ذلك ذروة الإخفاق الفكري.

وتعمقت أزمة الفكر عندما استنكفت التنظيمات والأحزاب اليسارية ومفكريها - باستثناءات ضئيلة - عن المراجعة والنقد وإعادة بناء الدائرة على صعيد كوني، والتي أطلق عليها «الماركسيات الألف». كانت المشاركة شبه منعدمة وشحيحة، ولم تنفتح قيادة وكوادر التنظيمات عليها أو على بعضها من باب الفضول، إن لم يكن من باب التسلح بالخبرة والمعرفة الضرورية لإزالة العقبات وفتح الطريق أمام التطور. لماذا بقيت

في تغيير الآخر والذات، فإنه سيضع نفسه في تصرف من يعملون على تغييره كأمر واقع.

لا يوجد مبرر لمواصلة الانفصال عن مساهمات المفكرين الجدد ولا يوجد مبرر لعدم الاطلاع على نتائج تفاعلهم مع المراجعات على صعيد كوني. ولا يوجد مبرر لعدم الاطلاع على إسهامات إدوارد سعيد وبخاصة كتاب الاستشراق الذي فكك فيه الغزو الثقافي الممهد للاستعمار، والذي نقد فيه تأثير ماركس وإنجلز بمقولات المستشرقين (كالاستبداد الشرقي، ونمط الإنتاج الآسيوي)، وكتاب الثقافة والامبريالية، ودور المثقف. الشيء نفسه ينطبق على مساهمات هشام شرابي ومحمد أركون وجورج طرابيشي ونصر حامد أبو زيد ومحمد عابد الجابري، والمؤرخون الإسرائيليون الذين قدموا دعماً نظرياً شديداً للأهمية للرواية الفلسطينية وبخاصة كتاب التطهير العرقي لإيلان بابيه وثلاثية شلومو ساند (اختراع الشعب اليهودي، واختراع أرض إسرائيل، ولماذا لم أعد يهودياً).

مكانة النخبة الثقافية

لا يمكن فصل الحزب السياسي عن دور المستوى الثقافي بالمعنيين الإيجابي والسلبي، فقد كان صعود الثورة الفلسطينية مقترناً بحضور المثقفين الذي أغنى التفكير السياسي والانفتاح على العالم، وعلى عكس ذلك فقد

تنظيمات اليسار منعزلة عن تلك المراجعات وما تزال تنتمي للمدرسة البيروقراطية السوفييتية واللينينية في حقل التنظيم، وللشمولية المحافظة؛ لقد وضع الروائي الراحل إميل حبيبي إصبعه على الجرح في وصفه لأزمة التنظيمات اليسارية بعد انهيار الاتحاد السوفييتي بالقول: «كنا في ما يشبه القفص الذي تحطم ذات يوم، البعض بقي على أنقاض القفص المحطم بانتظار عودة القضبان للإغلاق عليهم مرة أخرى، والبعض الآخر رفرر وتلمس طريقه، فوجد عالماً آخر خارج القفص» محاولاً استعادة دور سياسي اجتماعي ثقافي تقدمي داخل مجتمعه كما فعلت مجموعات الألف التي قامت بالمراجعة وتلمست سبل الخروج من الأزمة، كما أن البعض الآخر غادر القفص المحطم ودخل إلى ضفة البرجوازية الليبرالية الجديدة. يبقى السؤال لماذا لم تدخل التنظيمات ميدان المراجعة الداخلية لتجيب عن سؤال لماذا أخفق اليسار أو بقي يراوح مكانه كمعارضة مستأنسة أو مشاكسة بعض الشيء، ولم ينتقل إلى موقع مركز القرار؟ وبقي اليسار في موقع المُعْطَل، فلا هو يراجع ويدلي بدلوه، ولا يطلع على مراجعات الآخرين ويقول رأيه فيها، كأن يقبل بها أو بأجزاء وعناصر منها، أو يرفضها كلياً ويحاول تفنيدها، لم يحدث لا هذا ولا ذلك. لماذا لا يأخذ اليسار بالنظرية التي تقول: إذا عجز المرء عن تغيير الواقع، فعليه أن يغير نفسه؟ وإذا فشل

تقديم الأفكار، بعد أن تلازم ظهوره بظهور الحيز العام الذي يتشارك فيه المثقف مع الحركات الاجتماعية في العمل ضد الأشكال الاستبدادية للسلطة [25]. وهذا يتفق مع تعريف غرامشي للمثقف. فكل فئة اجتماعية تخلق معها عضواً مثقفين يمنحونها التجانس والوعي بوظيفتها في المجال الاقتصادي والاجتماعي والسياسي. ويتم الفرز بين المثقفين على قاعدة مصالح القوى الاجتماعية التي يعبر عنها المثقف، فيما إذا تطابقت مع أحد الأشكال الاجتماعية للتغيير التي تقع في مسار تحقيق العدالة والمساواة والحرية، وهو المثقف الداعم للتحرك، مقابل المثقف المعيق للتحرك الذي تتناقض مصالح القوى الاجتماعية التي يعبر عنها مع العدالة والمساواة والحرية، وهو ينافح السلطة ويدافع عنها [26]. ومن هنا يطرح غرامشي الكتلة التاريخية التي تربط البنية الاجتماعية بالبنية الفوقية، وتتيح تكوين كتلة تاريخية ذات منطلقات وطرائق وآفاق ثقافية، إنها مفهوم ثقافي لاستراتيجية بناء هيمنة ثقافية مضادة للهيمنة الثقافية السائدة [27]. تلك الكتلة التي لا تتكون إلا حينما يلتحم المثقفون التحاماً عضوياً بالشعب، والتي تضع أساساً لتنظيم اجتماعي جديد.

مفهوم آخر جديد للمثقف عند فوكو، يبحر فيه المثقف إلى المقهورين في قضايا محددة ويكشف لهم الحقيقة المختبئة دون ادعاء تمثيلهم. مفهوم ما بعد الحدأة الذي

سجلت مرحلة التراجع ابتعاداً للمثقفين النقديين لصالح مثقفي السلطة. ولا يمكن الحديث عن نهوض اليسار وحركة التحرر الوطني بمعزل عن دور المثقفين. يقول إدوارد سعيد: «لم يحدث أن قامت ثورة كبرى في التاريخ الحديث دون مثقفين، وفي مقابل ذلك لم تنشب حركة مناهضة كبرى للثورة دون مثقفين. فلقد كان المثقفون آباء الحركات وأمهاتها، وكانوا بطبيعة الحال من أبنائها وبناتها» [23]. وذلك من خلال الدور الذي يضطلع به المثقفون، سواء برصد التحولات وكشف غموضها، أو بفتح الأبواب أمام التغيير والتطوير، وبالتصدي للأسئلة الاجتماعية المعقدة والمحرجة، وبمحاولة نقل الناس من حالة المزاج الانفعالي والشعبوية إلى حالة الوعي، وصولاً إلى هدف الانتصار لقضية الحرية والعدالة من خلال الانحياز إلى صفوف الضعفاء والمضطهدين. ويحدد سعيد الدور بشكل ملموس بالقول: «إن قدرة المثقف على مداومة نزع الأقنعة وتحطيم الأشكال النمطية للرؤية والفكر التي تغرقنا فيها وسائل الاتصالات الحديثة، تعبر عن رؤية نضرة للمفكر المستقل»، مقابل ذلك فإن: «استقطاب السلطة للمثقفين وضمهم تحت جناحها ما زال قادرين فعليا على إضعاف أصواتهم، وانحراف المثقفين أو المفكرين عن أداء رسالتهم، وهذا ما زال يجري في حالات [بالغة الكثرة]» [24].

ولا يقتصر دور المثقف كناقذ اجتماعي على

(1) رونالدو منك، ماركس 2020 بعد الأزمة (ميلانو: منشورات المتوسط، 2018) 10-11.

(2) فرديريك جايسمون، خمس أطروحات في الماركسية المعاصرة، مجلة بدايات عدد-5 ربيع 2013.

(3) كريم مروة، نحو نهضة جديدة للييسار في العالم العربي، الحوار المتمدن، 9/12/2018.

(4) فالح عبد الجبار، تأملات في الماركسية، 2000، الرابط:

//http://yonadam.com/2018/03/02

(5) روزا لوكسمبورغ، عن الثورة والحزب وأفول الرأسمالية نصوص مختارة (رام الله: مؤسسة روزا 2016)، صفحة 129.

(6) المرجع السابق، 132.

(7) المرجع السابق، 232، 231، 141، 236.

(8) المرجع السابق، 248، 249.

(9) المرجع السابق، 252، 253، 255.

(10) المرجع السابق، 263، 260، 259، 264.

(11) المرجع السابق، 277، 274، 281.

(12) عبد الجبار، تأملات في الماركسية.

(13) الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين محطات في المسار 1969-2015، الرابط:

http://group194.net/article/55926

(14) منك، ماركس 2020 بعد الأزمة، 31-33.

(15) المرجع السابق، 45-46.

(16) المرجع السابق، 11.

(17) المرجع السابق، 14.

(18) عبد الغفار مكاوي، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، مؤسسة مهداوي 2017، صفحات: 14، 16، 24.

(19) هشام عمر النور، تجاوز الماركسية الى النظرية النقدية (القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، 2012) صفحة 82.

(20) المرجع السابق، 208-213.

استبدل المثقف الكلاسيكي الذي يناضل من أجل قضايا ضخمة كالتحرر والتحول الاجتماعي، بالمثقف المحدد الذي يتدخل في مجالات مثل الجامعات والسجون والمستشفيات وأقليات [عرقية. 28]

بقي التأكيد على الهدف العام من هذا المقال وهو: معرفة ما يجري طرحه من المدارس الفكرية المنوه عنها، ومحاولة إيجاد جسر يربط القوة الحية من اليسار مع التطور الفكري الناجم عن المراجعات النقدية، وتحفيز الإنتاج الفكري والسجال، وطرح الأسئلة والإجابة عن الأسئلة التي يطرحها الواقع.

(21) ماهر الشريف، هل الماركسية مستقبل في عالم متغير؟، الحوار المتمدن، تمت مشاهدته: 2004-2-9

<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=14574>

(22) يزيد صايغ / الكفاح المسلح والبحث عن دولة - الحركة الوطنية -1949-1993 / مؤسسة الدراسات الفلسطينية بيروت 2002 صفحة 945

(23) إدوارد سعيد، المثقف والسلطة، ترجمة محمد عناني، (القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، 2006) صفحة 42،43.

(24) المرجع السابق، 53-56.

(25) فيصل دراج / صور المثقف /مجلة الكرمل عدد 78 شتاء 2004

(26) النور، المثقف والسلطة، مقال منشور في موقع الحوار المتمدن، تمت مشاهدته: 2015-9-14

(27) علاء اللامي / الكتلة التاريخية: ماهيتها سياقها، تعريبها السياسي/ مجلة الآداب. 2016-4-4

(28) النور، المثقف والسلطة.